الفصل الثالث:
المسيحية من وجهة نظر اسلامية

إذا سمع مسلم اسم النبي محمد أو قرأه، في أي نص كما في هذا الكتاب مثلاً، فإنه يدعو للنبي مصلياً عليه[١] (عليه الصلاة والسلام)، كذلك يصلي المسلم على عيسى إن تلفّظ باسمه أو سَمِعه.

قد يبدو هذا غريباً مفاجئاً للقراء، الذين ليسوا على علم كافٍ بطبيعة الإسلام وفهمِه لذاته، ذلك أن الإسلام لا يَعُدّ نفسه ديناً جديداً في مقابل المسيحية لمجرد أنه، تاريخياً، جاء بعدها، بل إنه يَرى نفسه إكمالاً وتصحيحاً للدين الداعي إلى الوحدانية المطلقة، التي وصّى بها إبراهيم ومَنْ بعدَه مِن الأنبياء، كما نصّت على ذلك آيات كثيرة بيّنة، منها الآية ١٣ من سورة الشورى ﴿**شَرَعَ لكم من الدين ما وصّى به نوحاً، والذي أوحينا إليكَ، وما وصّينا به إبراهيمَ وموسى وعيسى أنْ أَقِيموا الدينَ ولا تَتفرَّقُوا فيه...**﴾.

من هذه الزاوية يمكن النظر إلى الإسلام بصفته أقدم الديانات الداعية إلى التوحيد، وإن كان في الوقت ذاته أحدَثَها تاريخياً. إنه، إذا غضضنا الطرف عن أخلاقياته ومبادئه الكريمة التي تدعو للتسامح، لا يزعم لنفسه الأحقيةَ المطلقةَ التي تشجب غيرها من الأديان، كما تفعل الكاثوليكية بموقفها من الديانات الأخرى[٢]. بل إن الأمر أبعدُ من هذا، فالإسلام يبني صَرْحَه على أسس الديانتين السماويتين اللتين سبقتاه، مشيداً بأنبياء اللّه[٣]، معترفاً ومؤكداً لجوهرهما الذي لم ينسخ بالوحي[٤]، إن الإسلام، حسب وصف (باول شفارتزناو) لَهُ ـ «رسالةُ

الوحي إلى الناس كافة في المعمورة كلها»[٥]. ولنتدبر معاً الآية (٨٤) من سورة آل عمران ﴿**قل آمنّا باللّه، وما أُنْزِلَ علينا وما أُنزل على ابراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيّون من ربهم لا نفرّق بين أحد منهم ونحن له مُسلِمُون**﴾ صدق اللّه العظيم.

ليست صلاحية الإسلام ومشروعيته إذن ناتجة عن رفضه لليهودية والمسيحية، وإنما من المقارنة الموضوعية بين الأديان الثلاثة[٦]، والواقع أن تلك الديانات الثلاث تربطها وشائج القربى، بحيث ترى الفروق التي تفصل فيما بينها أقل بكثير من التي تفصلها عن البوذية والهندوسية مثلاً[٧].

بذا نتفهم موقف الإسلام في اعتباره عيسى (عليه السلام) نبيًّا من أنبياء الإسلام، فقد أَسْلَم للّه كما يدل على ذلك المعنى الحرفيُّ اللغويُ للفظة «مسلم»، بيد أنه ليس بحالٍ من الأحوال خاتم النبيّين[٨].

ومُنْطَلَقُ علمِ الأصول أو الدين الإسلامي أن محمداً (ﷺ) لم يرد ذكرُه في التوراة فحسب وإنما في الإنجيل كذلك، أي في العهدين القديم والجديد، وقد بَشَّرَ عيسى نفسُه بمقدم الرسول الذي تعني ترجمةُ اسمه «أحمد» مشتقاً من الحمد (سورة الأحزاب، الآية ٤٠)، و (الصف، الآية ٦)، وقد نص في ذلك نصاً على أنه آخِرُ الأنبياء وخاتم المرسلين[٩].

يستقي الكثيرون معرفتهم عن منزلة عيسى ومريم وصورتهما في الإسلام من القرآن، خاصةً من سورة آل عمران (السورة الثالثة)، وسورةِ مريم (السورة التاسعة عشرة)[١٠]، ولا يعرف الكثيرون صورتهما ومنزلتهما في الأَثَرِ والسنّة، حيث يهتم القرآن بالعبرة المستهدفة من إرسالهما، ومن ثَمَّ كان إخباره عنهما بشكل أقل من النمط القصصي في السرد، مثلاً الآيات ١٦ ـ ٢٠ من سورة مريم ﴿**واذكر في الكتاب مريم... ولم يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ولم أكُ بَغِيًّا**﴾، وسورة عمران، الآيات ٤٧ ـ ٤٩ ﴿**قالت ربِّ أنّى يكون لي ولدٌ... إن في ذلك لآية لكم، إن كنتم مؤمنين**﴾. هذه الآيات البيّنات تجعل المسلم يتيقن أن اللّه سبحانه خَلَقَ عيسى خلقاً، لا بالتناسل المألوف، سبحانه: ﴿**ما اتخذ صاحبةً ولا ولداً**﴾ (سورة

الجن، الآية ٣)، ﴿**لم يَلِد، ولم يُولَد**﴾ (الإخلاص، الآية الثالثة)، فولدتْه أمُّه العذراءُ مريم، مؤيَّداً بروح القدس وبالمعجزات، كما في سورة المائدة الآية ١١٠ ﴿**... إذ أيدتك بروح القدس... سحر مبين**﴾ ويتيقن المسلم أيضاً أن عيسى نشأ في بيئة يهودية، عبداً صالحاً مباركاً نبيًّا، وأنه ليس ابناً للّه حاشا للّه، وأنه ليس ذا طبيعةٍ إلهية أو جوهرٍ مشابهٍ للّه، أو تجسيداً للناسوت والألوهية في شخص واحد، كما يزعمون ﴿**قالوا اتخذ اللّه ولداً، سبحانه هو الغنيّ، له ما في السماوات وما في الأرض. إن عندكم من سلطان بهذا؟! أتقولون على اللّه ما لا تعلمون**﴾ (يونس، الآية ٦٨).

﴿**وقالوا اتخذ الرحمنُ ولداً. لقد جئتم شيئاً إدًّا**﴾ (سورة مريم، الآيتان ٨٨، ٨٩).

أما التثليث فيرفضه القرآن رفضاً قاطعاً: ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن اللّه هو المسيح ابنُ مريم... ما المسيح ابن مريم إلا رسولٌ قد خَلَت من قبلِه الرسل، وأمُّه صديقةٌ، كانا يأكلان الطعام. انظر كيف نبيّن لهم الآيات ثم انظر أنَّى يؤفكون**﴾ (المائدة، الآيات ٧٢ ـ ٧٥)، والآيات نفسُها تؤكد بشرية مريم، وترفض تقديسها إلى درجة التأليه ﴿**وإذ قال اللّه يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتَّخِذوني وأمّي إلهين من دون اللّه... ... فإنك أنت العزيز الحكيم**﴾ (المائدة، الآيات ١١٥ ـ ١١٨).

هذا الإغراق والإفراط في تقديس مريم (لدرجة جَعْلِها تَعْرُجُ إلى السماء معراجاً[١١]) الذي يحلو للبعض أن يضفيَه عليها، يَبْرأ منه الإسلام، فما كانت وابنها سوى عبدين صالحين تقيَّين، كعباد اللّه الصالحين، لا أكثر، ولا أقلّ من هذا، أو كما يقول الحق سبحانه:

﴿**وجعلناها وابنَها آيةً للعالمين**﴾ (الأنبياء، الآية ٩١) و ﴿**صدّقت بكلماتِ ربِّها وكُتُبِه وكانت من القَانِتين**﴾ (التحريم، الآية ١٢)، و ﴿**ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيراً لكم، إنما اللّه إلهٌ واحدٌ سبحانَه**﴾ (النساء، الآية ١٧١). إن القرآن يثبت رفع عيسى إلى السماء (النساء، الآية ١٥٨)، لكن ليس كما ترد في الأناجيل بعد موته المزعوم على الصليب: ﴿**وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن**

مريم رسول اللّه، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهم... بل رفعه اللّه إليه، وكان اللّه عزيزاً حكيماً﴾ (النساء، الآيتان ١٥٧ ـ ١٥٨).

الآن، وفي أيامنا هذه، نتساءل: كيف ينظر الإنسان المعاصر إلى إنكار الطبيعة الإلهية للمسيح والروح القدس، باعتبار الآب، والابن، والروح القدس إلهاً واحداً كما يزعم القائلون بالتثليث؟! أما أنا شخصياً، فأرى أن نظرة الإسلام التي تنكر الطبيعة الإلهية لعيسى، تلقى مؤيدين يزداد عددهم باستمرار من بين المسيحيين أنفسهم.

لقلّما يلتفت المسيحي اليوم هنا إلى وجود فعّال للروح القدس. ويتضح في عصرنا بشكل جليٍّ يوماً عن يوم، أن الذات الإلهية «تصور عقلي» يدين الإنسان الغربي في تَخَيُّله له للتصورات التي سادت وشاعت قبل المسيحية مختلطة بالأفلاطونية، واللاأدرية، وكذلك الأفلاطونية الجديدة في وقت لاحق، حيث فرضت نفسها بإسهامها مع الأفلاطونية واللاأدرية في خلق الصورة «للذّات الإلهية». ولم تحظَ آلهة الفراعنة أو «الثالوث الفرعوني» إيزيس وأوزوريس والابن حورس بالنصيب الوافر الذي حَظِيَ به إلهُ أفلاطون «دِميورج»، الذي خَلَقَ العالَم الماديّ في معتقَدِهِ، و «اللوجوس» أو العقل الأول، أو النصيب الذي حظي به ثالوثٌ آخرُ: الوجودُ المادي والعقلُ والروحُ لدى أفلوطين ولدى بروكلوس. إنَّ مؤلف إنجيل يوحنا الموجودِ بين أيدينا، كائناً من كان، إنما يُحلّق في هذه الأجواءِ التأملية متنفساً هواءها «الساميَ»، فتراه يقول: «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند اللّه، وكان الكلمةُ اللهَ. هذا كان في البدء عند اللّه».

لقد مكّنت الترجمةُ الشارحةُ لبعض نصوص العهد الجديد لاستقرار الإطار الفلسفي «للشخص» الإلهي ثالثِ الثلاثةِ، فقد اكتفى القوم باديء ذي بدء بتحويل المُعَزِّي إلى «رُوح»، ثم حَوَّروا هذا الروحَ فأصبح «الروحَ القُدُس»، كما نعرف من إنجيل يوحنا (وأنا أطلب من الآب فيعطيكم مُعَزّياً آخرَ، ليمكثَ مَعَكم إلى الأبد. روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه. وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكثٌ معكم ويكون فيكم. لا أترككم يتامى. إني آتٍ إليكم...)[١٢].

بيد أنَّ العهد الجديد قد دأب على وصف اللوجوس (العقل الأول) أو الروح بأنه ليس شخصاً مادياً، فوصفه مثلاً بأنه «روحٌ من اللّه» كما تنص رسالة بولس الرسول الأُولَى إلى أهل كورنثوس: إصحاح ٢: ١٠ ـ ١٢ (فأعلنه اللّه لنا نحن بروحه. لأن الروح يفحص كل شيء حتى أعماق اللّه. لأن من الناس من يعرف أمور الإنسان إلا روح الإنسان الذي فيه... ونحن لم نأخذ روح العالم بل الروح الذي من اللّه...)، ووصفه أيضاً بأنه عطيّة أو هبة، كما في إنجيل لوقا: إصحاح ١١: ١٣ (... الآب الذي من السماء يعطي الروح القدس للذي يسألونه). وعلى كل حال، فإن عيسى (عليه السلام) لم يَذْكر إطلاقاً أيَّ شيء عن التثليث الذي هو أصل من الأصول الراسخة لدى أكثر مسيحيّي العصور المتأخرة، بعد القرون الأولى الميلادية، لأن عيسى فيما يبدو قد صَدَر في تصوره للذّات الإلهية عن التصور اليهودي لها، شأنُه شأنُ كافة اليهود في عصره، والحواريين الذين اتبعوه من اليهود(١٣).

والمعروف أن المجمع المسكوني المنعقدَ في نيقيه (بآسيا الصغرى) عام ٣٢٥ م لم يلتزم أو يحترم التصور اليهودي للّه، وهو تصور عيسى والمسيحيين الأوائل للّه أيضاً، فأصدر ذلك المجمعُ قراراً، ليس له طبيعة الإعلان وإنما طبيعة الدستور الملزم، وذلك بشأن مسألة التثليث، فبعثها وتبنّاها بصفتها عقيدةً أساسية، أما كافة الآثار والمخطوطات التي عارضت عقيدة التثليث هذه، فقد تم التخلص منها أو قُلْ إعدامها.

كذلك، فإن من المهم أيضاً (أو المؤسف حقاً) أنَّ أقدم نسخ العهد الجديد جميعِها، والتي يتداول القومُ ترجماتِها إلى لغاتهم، قد أَتَمَّ إعدادَها بعد ذلك المجمعُ المذكور. ليس معنى هذا بالضرورة أن يُوصَمَ تاريخُ المسيحية بأنه تاريخٌ إجرامي، كما يذهب إلى ذلك المؤلفُ الألماني كارل هاينز دشنر، لكن مقولَته (فَرْضِيَّتَهُ العلمية) التي تؤكد أن المسيحيةَ مزورة، تتفق مع ما يؤكده الإسلام من تحريفِ الإنجيل، ومخالفةِ المسيحية للنصرانية التي بشّر بها عيسى(١٤).

ينسحب هذا أيضاً على حقيقة وجود عيسى تاريخياً، وعلى دوره بوصفه يسوع المخلِّصَ، كما يقول القوم.

واليوم لا يبالي علماء الدين البروتستانت وبعضُ الكاثوليك بتوافر الموثوقية أو عدمِها للمصادر التاريخية بشأن وجود عيسى تاريخياً، بل يصمتون صمتاً تاماً متقبِّلين شتى التناقضاتِ الواضحة، والمغالطات التاريخية الفاضحة، التي ترد كثيراً في الأناجيل الأربعة، وترى القومَ بعد هذا وذاك ساكتين مُقِرّينَ للبدع الغريبة على النصرانية، والتي أخذتها في وقت متأخر من الشعوب الكافرة أصلاً، فأصبحت اليوم في الحياة العملية جزءاً من المسيحية.

الحقُّ أن البراهين القاطعة التي تثبت محاكمة عيسى غيرُ متوافرة، فالبحث العلمي الممحّص اليوم يشك شكاً قائماً على الدرس والمقارنة، في أن ثَمَّةَ محاكمةً جرت لِيُحكَمَ عليه إطلاقاً.

على أية حال، فإن الشاهد الذي يمكن الركون إليه في مسألة موت المسيح ضئيلٌ لا يسمن في هذا الموضوع. ولا يغني من جوع، لا سيما أن دفنَه، فرضاً أنه قُبِر، وقيامتَه، فرضاً أنه نُشِر، لم يرد في الأثر، وما رآه أَحَدٌ من البشر، رأيَ العين[١٥].

هذا الوضع يفسر لنا هذا الرواجَ العيسوي في الأدب الحديث اليوم، حيث تملأ عناوينَ المؤلفات وحدها، التي تناولت عيسى في السنوات الثلاثين الأخيرة أكثر من خمسمائة صفحة.

أما مسألةُ تجسد اللّه في عيسى أو حلول الذاتِ الإلهية فيه، فهي مبتورةٌ تعوزها الموثوقيةُ أكثر مما سبقها من المسائل الأخرى، ولن يجدَ القارئَ الموضوعيُّ البسيطَ، في أية ترجمة صحيحة للعهد الجديد، أيَّةَ جملةٍ أو كلمةٍ قالها عيسى يستنتج منها ذلك الافتئات المنسوب إليه ظلماً وعدواناً، إن عيسى ليس اللّهَ، وكل منهما منفرد في الإنجيل بمكانته: اللّه الربُّ وعيسى العبدُ لا أكثرُ ولا أقل. إن القارئَ للإنجيل هذا، سيقع على العكس، ليس فقط في نصوص الجُلْجَثَّة أو الجُمْجُمَة. ولكن بوجه عام، حتى في إنجيل يوحنا نفسه يقول عيسى: «... اذهبي إلى إخوتي وقولي لهم إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» (الإصحاح ٢٠: ١٧)..

قصارى ما يقع عليه قارئُ الإنجيل ألفاظاً مثلُ الآب والابن، وليس ذلك بشيء، لأن هذه الألفاظ لا تعني أُبُوّةً أو بُنُوّةً إلا على المجاز المتعارف عليه في جميع الديانات، كناية عن الصلة بين العبد المخلوق والذي خلقه.

قبل هذه الخلفية أريد أن أَذْكر أَرْبَعَةَ تياراتٍ مسيحية داخل الكنيسة، مع التمييز بينها:

أولاً ــ هناك طائفةٌ كبيرة من المؤمنين المسيحيين في القرى خاصةً يَدينون بالوحدانية المسيحيةِ التي تجعل من اللّهِ والمسيحِ ذاتاً واحدةً، وإن تفاوتت هذه النظرة قليلاً أو كثيراً... هذه النظرة التجسيمية التشبيهية، التي تخلع على اللّه الصفات البشرية، مثلاً عيسى رضيعاً في مهدِه أو بتعبير أدق في «المِذْوَد أو مَعْلَفِ البهائم، أقربُ إلى طبيعة السُذَّج وشعورهِم بالحاجةِ إلى ربٍّ مشابهٍ لهم، غيرِ مختلف جد الاختلاف عن تصورهم (وذلك هو الإله الذي أصدر عليه الفيلسوفُ نيتشه حكماً بالإعدام، في قولته المأثورة عنه).

ثانياً ــ في معتقد البروتستانت بوجه خاص، وحتى في داخل النظام الإكليروسي بمراتبه، أخذت النظرةُ إلى اعتبار المسيح إلهاً تضمحلّ، بل صار المسيح فيها واضعاً للمعايير الخلقية الحميدة، وأعلى مثل حسن يُحتذى في حب الآخرين وإيثارهم، رؤوفاً عطوفاً، يحسن الاقتداء به، سواء كان وجوده التاريخي حقيقة أو وهماً، فقد ثبتت وتأكدت القيمةُ التي لا تنكر للتعاليم المسيحية الإنسانية، على مر العصور.

بهذا التصور انحدرت البروتستانتينية بعيسى إلى مزلق خطير، حيث هبطت به إلى الإطار الوظيفي اللائق بالنموذج الأصلي للمشتغلين في مجال الخدمة الاجتماعية، مما يقلّص حجمه داخل «علم لاهوت» التعاسة والبؤس.

ثالثاً ــ الاتجاه المضاد أو المقابل للاتجاهين السابقين تمثّله النزعةُ الدينيةُ القائمةُ على الجانب الأسطوري لشخص عيسى، والتي تجنح بشغف إلى التصوف والغيبيات هرباً من صعوبة التأويلات التي تصطدم بها.

على أية حال، هذا هو الانطباع الذي خرجت به من قراءاتي، مثلاً لكتاب ريديجر ألتمان (سرُّ الليل)، والذي يذكر فيه مخطئاً بالطبع عن إلهٍ وُلِدَ ليلاً،

والذي يشهد فيه باعتقاده وإيمانه بمعرفته للّه حسب الفلسفة الغنوصية المسيحية[١٦] .

إن هذا الصنف من المؤمنين، تكفيه المصادر المتوافرة، طالما حفلت بالأساطير المتعلقة بالذات الإلهية، والأم الكبرى (مريم)، والنور الأزليّ، والخطيئة الأولى، ويسوع المخلص، وغير ذلك من الشعارات أو اللافتات التي تستتر وراءها.

تلك هي الفئةُ الباغية، التي لا تتورع عن الزعم بالطبيعة الإنسية للّه أو حلولِ اللّه في جسد إنسان، دون أن تخشى اتهامها بالزندقة حين تصرح بأنه، اللّه سبحانه «أصبح بميلادِه الجديدِ إذ حلَّ في جسدِ إنسانٍ، إلهاً آخرَ»[١٧].

رابعاً ــ الاتجاه الذي يمثله الأستاذ هانز كينج وهو اتجاه يعالج بشجاعة ودون الاستسلام للأوهام في دراسته، النصوصَ العتيقةَ، عالماً أن موثوقيةَ تلك النصوص موضعُ التساؤلِ، لكنه لا يفزع إلى العقلانيَة المغرقة في اللاأدرية، ولا إلى المادية اليومية المسطحة. هذا الاتجاه أَمْيَلُ إلى التغلب على مستعصيات المشكلات الوجودية، محاولاً تقويم اعوجاجها بواسطة تعريفات جديدة مستحدثة، مثال ذلك رؤية عيسى بصفته مفوضاً مختاراً من قِبَل اللّه، ورؤية التثليث على أنه وحي اللّه إلى عيسى بواسطة الروح القدس[١٨]، ونُنبّهُ إلى أن كلمة «القُدُس» هنا ليست صفةً في اللغة الألمانية، وإنما هي مُتَمِّمَةً لكلمة الروح، لذا لابد من كتابتها بالحرف الكبير لا بالصغير المميز للصفات؛ فالروح القدس اسم علم واحد(*).

بهذا تَحَمَّلَ هانز كينج التبعةَ المترتبة على هذه المعرفة «أيْ بُعْد الشُّقَّة بين الأقوال الأُولَى في الاناجيل عن الأب والابن والروح، وبين مُعْتَقَد التثليث الذي تبنته وروّجت له الكنيسة (بعد مجمع نيقية المسكوني عام ٣٢٥ م)، كذلك هذا التباين «والتناقض في التصورات التي تسوقها الأناجيل»، كما أن هانز كينج يعترف أنه من العسير القولُ إنَّ في الأناجيل أيَّ جملة تَمُتُّ، ولو من بعيد، بصلةٍ إلى مبدأ «التثليث» أو حتى ما يُشْبِهُهُ»[١٩].

(*) مركب من جزءين مثل عبد الله، لا مثل حضرموت أو معد يكرب، ونحو ذلك من الأسماء المركبة تركيباً مزجياً: (المترجم).

أما إذا أراد هذا الاتجاه الذي يمثله هانز كينج القولَ بأن عيسى ليس ابن اللّه وليس مشابِهاً له في الطبيعة أو الألوهية أو الربوبية، وأن الروح القدس ليس ذا طبيعةٍ إلهية، فإنه يُعَدُّ اتجاهاً إسلامياً، ومن ثم يؤيد ما يذهب إليه المسلمون حين يقولون إنهم هم أَوْلى الناس بعيسى، أو هم المسيحيون الذين لم يخرجوا على شريعة المسيح قط، على عكس سواهم، بل يؤيد هذا بالفعل أن الإسلامَ أقدمُ من المسيحيةِ التي نراها اليوم، ولا بد من التنويه أن هانز كينج وغيرَه قد أصابوا كَبِدَ الحقيقة في قولهم إن مسيحية اليهود الذين تنصروا قد حفظها القرآن بين ثناياه.

الواقع أن هذه النظرة الجديدة، والقديمة في الوقت ذاته، إلى طبيعة عيسى والدور الذي كتب عليه أداؤه، نظرة ذات أهمية خطيرة، ذلك أن النبوة شيء خطير الأهمية حقاً. على أن هذه النظرة الجديدة إلى طبيعة عيسى والدور الذي كتب عليه أداؤُه بصفته نبياً مرسلاً، حُجَّةٌ تقوم على القائلين بها، فعليهم إذن أن يفسروا لنا لماذا ظلوا على مسيحيتهم شعوراً وممارسَةً، ولم يدخلوا الإسلامَ، بعد ما تبين لهم أنه الحق[٢٠].

وأظن ظناً أن شعورَهم لا يزال معلَّقاً بنظرتهم إلى النجاة والخلاص، المستنِدَيْنِ إلى الخلفية المعروفة، الناظرةِ إلى الخطيئة الأولى وإلى آلام المسيح بالدرجة الأولى.

أما الإسلام، فإنه يرفض هذه النظرة للخطيئة الأولى، لأنها منطلقةٌ من فشلِ ما خلق اللّهُ أي أن خَلْقَهُ (آدم وحواء) خَلْقٌ سيء، فهذا افتراءٌ على اللّه، مناقضٌ لمبدأ قرآني رئيسٍ في الإسلام ﴿**لا تزر وازرة وزر أخرى**﴾ (الانعام، الآية ١٦٤)، بل إن الفرد ليس مسؤولاً عن وزر الجماعة أو القبيلة المنتمي إليها، هذه التصورات تناقض ما يعرفه الإسلام عن ذات اللّه الرحمٰن الرؤوف الرحيم، الحكم العدل[٢١].

إن الإسلام يرفض رفضاً قاطعاً الحاجة الماسة للمُخَلِّص أو الخلاص، بل إن الإسلام يَعُدُّ الزعمَ الديني بأن المسيح كان الحَمَلَ الذي ضحَّى نَفْسَه لخلاص العالم تجديفاً وسبًّا وزندقةً، خاصةً هذه الصيغة التي يُردِّدُها القومُ في صلاتهم

ويؤمنون بها «بموته على الصليب، حيث تجمعت كل آلام البشر، تَحَمَّل اللّهُ، لأجل نجاتهم، آلامَهم»، إن مثل هذا السَّخَفِ الدينيّ يَنْسِبُ إلى اللّه أنه ليس بقادرٍ على إنقاذ خلقه وتخليصهم دون أن يَخْلق إلهاً ليفتديهم ويتحمل عنهم الآلامَ... وهذا التصورُ كسابقه يعارض تصورَ الإسلام للذات الإلهية، حيث يُصوِّرُ القومُ اللّهَ ضحيةَ عبادِه الثائرين ضِدَّه، والذين قالوا إنهم قتلوه وصلبوه.

من هذه الزاوية نرى مع (باول شفارتزناو) أيضاً أن رفض فكرة موت المسيح على الصليب على الإطلاق جزءٌ من الاحتجاج على تسليم المسيحيين بقصة الصلب تسليماً لا يشكّون فيه[٢٣].

إن الإسلام يرى أن اليهود ما صَلَبُوا المسيح وما قتلوه، إنما شُبِّه لهم ذلك، لأن اللّه رفعه إليه: ﴿**إذ قال اللّه يا عيسى إني مُتَوفِّيك ورافعكَ إليَّ**﴾ (آل عمران، الآية ٥٥).

أما عن كيفية رفع اللهِ المسيحَ إليه، فليست معلومةً على الوجه الصحيح، وكل ما يقال في هذا الأمرُ تخرصات أو تخمينات[٢٤]، إذ لا يعلم ذلك أحد يقيناً، سوى اللّه، سبحانه ﴿**... وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم، وإن الذين اختلفُوا فيه لَفِي شكٍّ منه، ما لهم به من علم إلا اتِّباع الظن، وما قتلوه يقيناً، بل رفعه اللّه إليه وكان اللّه عزيزاً حكيماً**﴾ (النساء، الآيتان ١٥٧ ـ ١٥٨)[٢٥].

لهذا ينبغي على المرء تقييمُ الأسطورة التي تزعم أن عيسى عُمِّرَ طويلاً، ومات في كشمير، وبها قُبِرَ، بما هي أهلٌ له من التقييم بوصفها أسطورة[٢٦].

تلك إذن هي الخلفية التي تكتنف السؤال الملح اليوم: ما الفُرَصُ الحقيقيةُ المتاحةُ للحوار المسيحي الإسلامي اليوم، والذي لا مناص منه للحفاظ على السلام العالمي؟[٢٧].

في ٢٢ نوفمبر ١٩٨٨ ألقى عالم اللاهوت الألماني هانز كينج محاضرة في العاصمة الجزائرية، حول هذا الموضوع، بعنوان (لا سلام في العالم، بدون الوئام بين الأديان) فالسلام العالمي، رهنٌ بالسلام الديني، ولم تَكُنْ لدى المحاضر معرفةٌ آنذاك بما سيقع بعد عامين (عام ١٩٩٠ م) في منطقة الخليج العربي، ولقد

كان يرجو أو قل يتمنّى أن تتفق الأطراف المعنية على التزام الأمم بميثاق أخلاقي قائم على التقارب الديني وتفهّم كل طرف للطرف الآخر، لا أن يرتضي الجميع أو يتخذوا ديناً موحداً يدينون به ولا أن يضلوا في المتاهات الفوضوية، التي تحاول التوفيق بين الأديان المتعارضة.

الحق أن الجانب المسيحي بَذَل جهداً مشهوداً محموداً في سبيل هذا الحوار بين الأديان من أجل إحلال السلام والحفاظ عليه[٢٨]، وذلك على الصعيد العالمي تقريباً: يدخل في ذلك مثلاً المؤتمرات والندوات في مجال العلاقات بين الأديان في قرطبة، والمؤلفات والمنشورات الجادة القيمة لعدد من الرهبان مثل ميشيل ليلونج[٢٩]، والرسائل السنوية التي يبعث بها البابا إلى المسلمين مهنئاً بعيد الفطر، راجياً لَهُم وللعالم الخيرَ والحياة في أمن وسلام، ودعوته لممثلي الأديان على اختلافهم لأداء صلاة جماعية يوم ٢٧ أكتوبر ١٩٨٦ في مدينة أزيزي بإيطاليا.

إن تَفَهُّم كِلِّ طرف للآخر يتطلب شرطاً أولياً مسبقاً، أن يحترم كلاهما الآخر ويتقبله حسب فهمه لذاته. هذا يعني للمسلم أن يتقبل المسيحيين كما هم، غيرَ واصمٍ لهم بأنهم مشركون كفرةٌ، حتى وإن كانوا، من وجهة النظر الإسلامية، يدينون بوحدانية متميّعة.

وعلى الجانب المسيحي أن يكفّ عن الزعم قولاً وعملاً بأن لا نجاة أو خلاص خارج الكنيسة، وذلك كما يزعم الفاتيكان الثاني (أعلى سلطة للكنيسة الرومية الكاثوليكية)... هنا نخشى ألا يمتثل القوم طالما أن الكنيسة الكاثوليكية متمسكةٌ بمبدأ رئيس لديها (لا نَبِيٌّ إلا الأنبياءُ الذين تعترف الكنيسة بنبوتهم)، أي أنها قد ترتضي أن يكون الإسلام ديناً يهدي للخلاص، لكنها ترفض رفضاً تاماً أن تعترف بنبوة محمد، داعياً إلى اللّه على ذلك الصراط... الواقع أن الفاتيكان قد وقع في تناقض يدمغه المنطقُ، ويعوزه الصدقُ، ذلك إذ قرر أن المسلمين يجب معاملتهم بالاحترام الكامل، لكنه أغضى عن عمدٍ، متجنباً عن الإشارةِ للقرآن والذي بَلَّغَ القرآنَ، وذلك بشكلٍ مخجل مخزٍ[٣٠].

يتضح من حيثيات هذا القرار أن التقاربَ المنشود، على صعيد الأديان، محدودٌ بحدود، لأن كل دين منها يصطدم بنقاط جوهرية صلبة، لا تُطْرَحُ للمناقشة للحسم فيها، أو بمعنى آخر لا يتنازل أي طرف عنها أو يرضى المساومةَ عليها. وتلك النقاط الجوهرية التي ذكرها هانز كينج في محاضرته المشارِ إليها آنفاً، في قرطبة، هي:

- كونُ المسيح ابنَ الله لدى المسيحيين.
- كونُ القرآن وحيَ اللّه لدى المسلمين.
- كونُ اليهود شعب اللّه المختار لدى اليهود.

الواقع أن القياس يمكن أن يصور هذا التناقض على النحو التالي: مِحْورُ المسيحية شخصٌ، ومحور الإسلام كتابٌ وكلمةُ اللّه تجسدت في المسيحية لحماً (عيسى)، وتجسدت في الإسلام كتاباً، هو القرآن[٣١] .

وحيث إن هذا صحيح، فإن إمكان المصالحة بين الأديان، أمرٌ واردٌ في الحسبان، وذلك إذا وافقت الهيئاتُ المسيحيةُ ذات الشأن على القول بطبيعة عيسى حسب مفهومِ هانز كينج لها، وإذا اعترفت بأن القرآن كلمةُ اللّه، (أصدق القائلين).

ولا يَظُنّنَّ أحدٌ أننا نعني أن الحوار المفتوحَ بين الأديان عديمُ الجدوى أو أنه صرخة في واد، إذا لَجَّتِ الأطراف المتحاورة في العناد، دون تنازل أيٍّ منها عن موقفه بعض الشيء... بل على المرء ألا يُسِيءَ تقديرَ آثار الخطوات الصغيرة وجدوى اللقاءات والمناقشات بين البشر، خاصة مع البسطاء غير المثقفين من الكادحين الأجانب في ألمانيا، بشرط عدم سوء النية، أو النوازع الخفية، التي تستهدف التبشير. ولا يخفى على أحد، أن المسلم الحق مستحيل أن يرتد، أو أن تفلح معه محاولات التنصير.

الملاحظات الهامشية للمؤلف:

(١) صلى الله عليه وسلم.

(٢) ارجع الى فصل «التسامح وسماحة النفس أم العنف».

(٣) البقرة، الآية ٨٧، والأنعام، الآيات ٨٣ ـ ٨٧.

(٤) الأحزاب، الآية ٧، المائدة، الآية ٤٦.

(٥) باول شفارتزناو: علوم القرآن للمسيحيين، ط ٢، هامبورج ١٩٩٠.

(٦) قارن: عمانويل كللرهانز: الإسلام، ط ٢ بازل ١٩٥٦، ص ٣٧٧ وما بعدها.

(٧) هكذا يرى القس الكاثوليكي الأب جريجور بوكرمان في مقالته بتاريخ ٨٩/٩/٢٥، ص ١١، في جريدة فرانكفورت العامة (فرانكفورتر ألجماينه).

(٨) قارن كتاب «عيسى نبي من أنبياء الإسلام»، تأليف محمد عطاء الرحمن، ط ٣، لندن ١٩٨٣، أحمد عبد الوهاب: حوار ومجادلات بين المسيحية والإسلام، باريس ١٩٨٧، و: كينيث ج. روبرتسون: يسوع أم عيسى؟ مقارنة بين عيسى في الأناجيل وعيسى في القرآن، نيويورك ١٩٨٣، و: نيلو جياجيا: مريم في القرآن نقطةُ التقاء بين المسيحية والإسلام، نيويورك ١٩٨٤.

(٩) يستند هذا إلى إنجيل يوحنا، إصحاح ١٤: ٢٦ و١٦: ١٣ على افتراض أن الكلمة الموجودة تعني أحمد، لا الكلمة الأخرى التي تعني: المؤيد أو المُعَزّي، قارن: دافيد بنيمين: محمد في الإنجيل، ميونخ ١٩٨٧، صفحة ١٨٣ وما يليها، و: صاحب مستقيم بليهر: شهادة الإنجيل: شواهدُ من الإنجيل تشير إلى موثوقية القرآن، ط فايلزفيست ١٩٨٤، ص ١٨، وكذلك باول شفارتزناو، مرجعه المذكور آنفاً.

(١٠) قارن سورة البقرة، الآية ١١٦ وما يليها، والأنبياء، الآيات ٢٦ ـ ٣٠، وأحمد فون دنفر: الإسلام وعيسى، ميونخ ١٩٩١.

(١١) في الممارسات الدينية اليومية لدى مسيحيي اليوم زحزحت مريم الروحَ القدسَ إلى ورائها، أما فيما يتعلق بإجلال صوفية المسلمين اليوم لمريم إجلالاً مفرطاً مبالغاً فيه، فارجع إلى (الترنيمة المريمية الكونية) في كتاب: مريم في الإسلام لشارلز ـ أندريه جيليس، باريس ١٩٩٠.

(١٢) يؤيد هذا مثلاً إنجيل يوحنا، إصحاح ١٤: ١٦ و١٤: ٢٥، قارن أيضاً صاحب مستقيم بليهر في المرجع المذكور آنفاً، صفحة ١٨٠ وما بعدها.

(١٣) قارن: أدولف شلاتر: تاريخ المسيحية الأولى، طبع جيترزلوه ١٨٩٢، وجون هيك وإدموندس ملتزر (الناشر) ثلاثة أديان وإله واحد: مجابهةٌ بين اليهودية والمسيحية والإسلام، ط لندن ١٩٨٦.

(١٤) كارل هاينز دشنر: العقيدة المحرَّفة، ط ميونخ ١٩٨٨، كذلك كتابة: التاريخُ الإجرامي للمسيحية، طبع هامبورج، المجلد الأول ١٩٨٦، والثاني ١٩٨٨.

(١٥) قارن فيدج فريكه: «مصلوباً دون محاكمةٍ طويلة، وفقاً للعرف السائد»، شخصُ عيسى الجليلي ومحاكمتُه، طبع فرانكفورت ١٩٨٦.

(١٦) ريديجر ألتمان: جريدة فرانكفورت العامة (ألجماينه) ـ الملحق بتاريخ ١٩٨٥/١٢/٢١.

(١٧) هانز فالدنفلس: جريدة فرانكفورت العامة (ألجماينه) بتاريخ ١٩٨٥/١١/٢٤.

(١٨) هانز كينج ويوسف فان إس: المسيحية والديانات العالمية: مجلد ١، الإسلام، جيترزلوه ١٩٨٧.

(١٩) هانز كينج: نحو حوار مقبل بين المسلمين والمسيحيين في دورية الجامعة، شتوتجارت ١٩٨٤، ص ١٣٥١.

(٢٠) لماذا أنا مسيحي أبداً؟ باريس ١٩٨٥، عنوان الترجمة الألمانية: «بذا يمكن المرء أن يستمسك»، طبع كولونيا ١٩٨٥.

(٢١) فيما يتعلق بالدور الوظيفي للخطيئة الأولى على مدار تاريخ الكنيسة، قارن: إلين باجلز: «آدم وحواء والحية»: اللاهوت القائم على الخطيئة، ط راينبك ١٩٩٠.

(٢٢) هكذا كتب كارل ـ ألفريد أودين: جريدة فرانكفورتر ألجماينه، المقال الافتتاحي بتاريخ ٤/٤/ ١٩٨٥، «بل إن فرنسا شَهِدَت أكثر من هذا حيث نشأ «لاهوتُ معارضي اللّه المغلوبين البؤساء، المناصرين للمساكين والضعفاء»، قارن: جان ديلومو، «هذا هو مُعْتَقَدي»، باريس ١٩٨٥.

(٢٣) باول شفارتزناو: المرجع المذكور آنفاً.

(٢٤) قارن: التعليق الحكيم على الآية ١٥٧ من سورة النساء في ترجمة حمزة بوبكر للقرآن، الطبعة الثالثة باريس ١٩٨٥، إلى جانب هذا كتاب ج. بارندر: عيسى في القرآن، ط أوكسفورد ١٩٧٧، حيث يحلل المعنى المقصود من لفظة قتلوه في الآية الكريمة ﴿**وقولهم إنا قتلنا المسيح... وما قتلوه يقيناً**﴾ **(النساء، الآية ١٥٧)**: الواقع أن قتلوه جُمْلَةٌ من فعلٍ وفاعلٍ ومفعولٍ به، فنرى المؤلف ج. بارندر يركز ليس على عدم القتلِ نفسه (ما قتلوه) ولكن على ادعائهم هم أنهم قاموا بقتله (إنا قتلنا المسيح)، وهنا تكون المطابقةُ ممكنةً بين المسيحية التي تقول إن اليهود قتلوا المسيح صلباً، وبين الإسلام الذي يؤكد، وفقاً للآية، أن اليهود فعلاً زعموا أو ادعوا أنهم قتلوه، فلا تعارض ظاهري بين الأمرين، وإن كان الواقعُ الحقيقي مختلفاً تماماً، أي أنهم على الحقيقة ما قتلوه وما صلبوه.

(٢٥) قارن: محمد أسد: رسالةُ القرآن: جبل طارق ١٩٨٠، الحاشية رقم ١٧١ على الآية المذكورة ١٥٧ من سورة النساء، وكذلك محمد علي: القرآن العظيم، الطبعة الثامنة، ط برنتوود ١٩٨٥، الحاشية ٦٦٣ على الآية.

(٢٦) أندرياس فابر قيصر: «عيسى عاش ومات في كشمير» طبع لوتسرن ١٩٨٦.

(٢٧) بالنسبة للحوار المسيحي الإسلامي، انظر: محمد سالم عبد الله: الإسلام، للتحدث مع المسيحيين، الطبعة الثالثة، ألتنبرجه ١٩٩٠.

(٢٨) قارن: في الحديث المشترك: الإسلام والمسيحية: كولونيا ١٩٨٣، و: موريس بورمانز: السُبل إلى الحوار المسيحي الإسلامي، فرانكفورت ١٩٨٥.

(٢٩) ميشيل ليولنج: «إن شاءَ اللّه...» باريس ١٩٨٦.

(٣٠) هانز كينج: المسيحية والإسلام، مجلة للتبادل الحضاري، شتوتجارت ١٩٨٥، العدد ٣، ص ٣١١ وما يليها.

(٣١) هانز كينج: جريدة العالم (دي قلت) بتاريخ ١٩٨٩/٣/٦، صفحة ١٣.